شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٦)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أبا سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله في كتابه "الرد على الجهمية" استهلَّ ردَّه ذاك بالحديث عن مسألة شريفة كبيرة هي الفاصل والكاشف بين مذهب أهل الحق ومذهب مخالفيهم في باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وهي مسألة العلو، وقد تناولها من جهة إثبات العرش بكون العرش هو سقف المخلوقات وأعلاها، والله تعالى فوقه، ومن جهة إثبات الاستواء عليه، ونازل هؤلاء الجهمية بالعقل والنقل، فذكر الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على إثبات العرش وعلو الله تعالى عليه، وبطلان تأويلات الجهمية للاستواء بأنَّه الاستيلاء، وذكر ما يلزمهم عليه من اللوازم الفاسدة، في كلام بيِّن قاطع لشبهة المخالف، وتبيَّن بهذا أنَّ عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة الشريفة أنَّ الله سبحانه وتعالى بذاته فوق عرشه، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس في خلقه شيء منه، وليس فيه شيء من خلقه. سبحانه وبحمده.

وتقدم معنا أنَّ السلف كانوا يستخدمون بعض العبارات الكاشفة في مقام الاحتجاج والمناظرة، كقولهم: بائن من خلقه، أو منفصل، أو نحو ذلك، وهي لم ترد في النصوص، وإنَّما هي مستفادة من النصوص، فأما في مقام التقرير فإنَّها تُقرَّر كما جاءت ألفاظها في الكتاب والسنة، ففيه غنية وكفاية، وإنَّما أُلجئ أهل السنة إلى مثل هذه العبارات بسبب ما أدخله هؤلاء المتكلمون على المسلمين من الشبهات الباطلة، فاقتضى الأمر ذكر بعض العبارات التوضيحية، وقد تقدم معنا في مبحث إثبات الاستواء والعلو جملة من الآيات القرآنية،

فالشيخ رحمه الله ذكر جملة من الآيات القرآنية، وسيختم الفصل أيضاً كذلك بآيات قرآنية أخرى، وتوقفنا عند ذكر الأحاديث النبوية، فنبتدئ من هذا الموضع وهو ما يتعلق بذكر الأحاديث النبوية.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. أما بعد: قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والمسلمين: [حدَّثنا مسلم بن إبراهيم الأزدي، (قال): حدَّثنا أبان وهو ابن يزيد العطار، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: كانت لي جارية ترعى غنماً لي في قبل أحد والجوانية، وإني اطلعت يوماً اطلاعةً فوجدت ذئباً ذهب منها بشاة، وإني رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، فصككتها صكةً، فعظَّم ذلك علي النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: أفلا أعتقها؟ فقال: {ادعها}، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: {أين الله؟} قالت: في السماء. قال: {فمن أنا؟} قالت: أنت رسول الله، قال: {أعتقها، فإنَّها مؤمنة}.

وحدَّثناه يحيى بن يحيى، (قال): حدَّثنا إسماعيل بن علية، عن الحجاج الصواف، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله.

وحدَّثنا يحيى بن يحيى التميمي، قال: قرأت على مالك بن أنس، عن هلال بن أسامة، عن عطاء بن يسار، عن الحكم[١]، أنَّه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إنَّ جاريةً لي ترعى غنماً، فجئتها، ففقدت شاةً من الغنم، فسألتها عنها، فقالت: أكلها الذئب، فأسفت عليها، وكنت من بني آدم، فلطمت وجهها، وعلي رقبة، أفأعتقها؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أين الله؟} قالت: في السماء، قال: {من أنا؟} قالت: أنت رسول الله، قال: {أعتقها}].

الحمد لله رب العالمين.

[١] لعل الصواب: معاوية بن الحكم.

هذا الحديث حديث صحيح، قد رواه المؤلف بسند صحيح، كما رواه أيضاً الإمام مسلم رحمه الله، وفيه دلالة عظيمة على إثبات علو الله تعالى بما لا يدع مجالاً للشك، وله قصة وهو أنَّ معاوية بن الحكم رضي الله عنه كان له جارية قد استرعاها على غنم له ترعى غنمه، ثم إنَّها غفلت عن الغنم، فندَّت منها شاة، فأكلها، فلما اطلع على الحال أسف، وأسف هنا بمعنى: غضب، قال: وإني امرؤ من بني آدم آسف كما يأسفون، قال تعالى: ((فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ))[الزخرف:٥٥]، يعني: اغضبونا، ((انتَقَمْنَا مِنْهُمْ))، فالأسف يأتي بمعنى الغضب.

فصككتها صكة، وجاءت مفسرة في السياق الآخر: أي لطمها، فعظَّم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم عليه، إذ أنَّ هذه جارية ضعيفة، ولا يُفعل بها مثل ذلك، فكان من ندمه أنَّه رغب في إعتاقها، لكن النبي صلى الله عليه وسلم استمهله، وطلب منه أن يأتي بالجارية ليتحقق من إيمانها، فوجه إليها سؤالين:

أحدهما: قال لها: {أين الله؟} فقالت على البديهة والفطرة السوية: في السماء. وهذا موضع الشاهد.

والسؤال الثاني: قال: {فمن أنا؟} قالت: أنت رسول الله، قال: {أعتقها فإنَّها مؤمنة}.

فقد تحقق النبي صلى الله عليه وسلم من إيمانها بإثبات هذين الأمرين، ما يتعلق بالله وما يتعلق بنبيه صلى الله عليه وسلم، فقولها: (في السماء) لا يُفهم منه عند كل عربي قح إلا أنَّ تعالى في العلو، فإما أن نقول: إنَّ (في السماء) أنَّ (في) للظرفية، فإن قلنا: إنَّ (في) للظرفية فحينئذ يكون المراد بالسماء العلو، وإن قلنا: إنَّ (في) بمعنى (على) وهذا دارج في لغة العرب كثير فإنَّ السماء هي السماء المبنية.

مرة أخرى نقول: (في) في هذا السياق تحتمل أمرين:

إما أن تكون (في) بمعنى الظرفية، والظرفية تقتضي أنَّ لفظ (في) يدلُّ على احتواء الشيء والإحاطة به، كما تقول مثلاً: وضعت القلم في جيبي، أدخلت الكتاب في الدرج، فحينئذ لابدَّ أن نفسِّر السماء بالعلو والسماع بمعنى العلو معلوم، فإنَّ كل ما علاك فهو سماء لك، ((أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً))[الأنعام:٩٩]، أنزل من العلو لا أنَّه من السماء المبنية، فالسماء تأتي بمعنى العلو، فحينئذ نقول: إذاً (في) على وجهها وهي بمعنى الظرفية.

وإما أن نقول: إنَّ السماء ليس المراد بها العلو، وإنَّما المراد بها السبع الشداد، فحينئذ يتعيَّن أن نفسِّر (في) بمعنى (على)، فيكون "قالت: في السماء"، أي: على السماء، وهذا شواهده في كتاب الله كثير، كقول اله عز وجل: ((سِيرُوا فِي الأَرْضِ))[النمل:٦٩]، يعني: على الأرض، وقول فرعون: ((وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ))[طه:٧١]، أي: على جذوع النخل، وقول الله تعالى: ((فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا))[الملك:١٥]، يعني: على مناكبها.

فهذان توجيهان، المهم أنَّ هذا الحديث يفهم منه كل صاحب عقل سوي وفطرة مستقيمة أنَّ الرب المعبود سبحانه وبحمده في جهة العلو، فهذا من أقوى أدلة أهل السنة والجماعة على هذه المسألة، ويستفاد أيضاً من الحديث جواز الامتحان عند الحاجة، وإلا فالأصل في المسلم الإسلام، لكن لما كان العتق لابدَّ أن يكون رقبة مؤمنة وهذه جارية لا يُعلَم حالها، ويحتمل أنَّها لم يبلغها الأمر، أو كان مغفولاً عنها؛ حقَّق النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالامتحان، وقد شقي أهل التحريف بهذا الحديث، لأنَّه يناقض ما ذهبوا إليه، وقد ذكرنا لكم آنفاً أنَّ المخالفين لأهل السنة في هذا الباب هم الجهمية الذين يردُّ عليهم الشيخ، فكان الجهمية كان أوائلهم يقولون بالحلول، يزعمون أنَّ الله تعالى حالٌّ في الأمكنة، ويفسِّرون آيات المعية على أنَّها بمعنى الامتزاج والاختلاط. تعالى الله عما يقولون، وقد سبقت الإجابة عن شبهتهم تلك، وأما متأخروهم فإنَّهم صاروا إلى العدمية، أي: نفي الجهات الست كلها، فيقولون: لا أمام ولا خلف، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ينفون الجهات الست، ويقولون: لا محاذي، ولا محايث، ولا مجانب، ولا ولا ولا، بسلسلة من النفي المتصل الذي مآله إلى العدم، وينكرون الإشارة الحسية إليه، فلا يبيحون لأحد أن يشير إلى السماء، مع أنَّ نبينا صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وبين يديه مائة ألف أو يزيدون يرفع إصبعه إلى السماء، وينكت بها على الناس، يقول: {اللهم هل بلَّغت، اللهم فاشهد}، يشير إلى جهة العلو، ومع ذلك فإنَّ هؤلاء المنكوسين قد أنكروا هذا.

ومن شقائهم به أنَّهم صاروا يبحثون عن تعليلات باردة سامجة لهذا، فمنهم من قال: إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى أنَّها جارية أعجمية، فعاملها على قدر عقلها، فقال: {أين الله؟} فقالت: في السماء، فقبل منها

هذا، يا سبحان الله! كلُّ هذا من التكلُّف والتعسُّف الذي ألجأهم إليه شؤم التحريف، ولو أنَّهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله، وقبلوا ما تكلَّم به النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذوه على ظاهره، لعلمهم أنَّه صلى الله عليه وسلم أعلم بربه، وأصدق قيلاً من جميع الناس، وأحسن حديثاً وأبين بياناً، وأنصح الأمة للأمة، لكان لزاماً عليهم أن يأخذوا بما دلَّ عليه ظاهر الحديث.

ومن الفوائد: أنَّه ينبغي للإنسان أن يُتبِع السيئة الحسنة، وأن يبالغ في الاعتذار لمن أساء إليه، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، فعلى المؤمن أن يتحلل من حقوق العباد، فإنَّ كثيراً من الناس ينطق بالكلمة النابية، أو يتصرف التصرف الذي فيه جناية، ثم يوليه ظهره ويمضي، ولا يعلم أنَّ غريمه هذا ربما تقلَّب في فراشه في الليل ودعا عليه، وربما لم يلقه إلى في عرصات القيامة، فأنى له أن يتحلل منه حينئذ وهو يطمع بحسنة واحدة يجتنيها منه، أو بسيئة واحدة يلقيها عليه، فهذا معاوية بن الحكم لما رأى تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع منه، رغب في عتقها، علَّ ذلك أن يكون كفارة له.

ثم قال: [قال أبو سعيد: ففي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا دليل على أنَّ الرجل إذا لم يعلم أنَّ الله عز وجل في السماء دون الأرض فليس بمؤمن، ولو كان عبداً فأعتق لم يجز في رقبة مؤمنة، إذ لا يعلم أنَّ الله في السماء. ألا ترى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أمارة إيمانها معرفتها أنَّ الله في السماء؟].

بلى نرى ذلك، فهذا استدلال وجيه واستنباط واضح بيِّن من هذا الحديث.

إذاً من لم يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى في السماء فليس بمؤمن، لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم جعل هذا أمارة على صحة الإيمان، كما أنَّ من لم يعلم أنَّ محمداً رسول من عند الله فليس بمؤمن، سواء بسواء.

[وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أين الله؟} تكذيب لقول من يقول: هو في كلِّ مكان، لا يوصف بــ(أين)، لأنَّ شيئاً لا يخلو منه مكان يستحيل أن يقال: (أين هو؟) ولا يقال: (أين) إلا لمن هو في مكان يخلو منه مكان].

هذا هو قول الجهمية، فإنَّ الجهمية ينكرون السؤال بـــ(أي)، حتى إنَّهم يقولون في خطب كتبهم وغير ذلك: مترَّه عن الأين والكيف، ولا شك أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن تكييف صفاته، وإن كان لها في الواقع كيفية قطعاً، لكنهم يقولون: إنَّه مترَّه عن الأين، وهذا كله من مخاريقهم، لا دليل عليه، كفى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم عبَّر بهذا التعبير، وقال: {أين الله؟} وصدَّق الجارية لما قالت: في السماء. فدعواهم بأنَّه في كلِّ مكان لا يوصف بـــ(أين)، إلى غير ذلك من دعواهم، كلُّ هذا باطل ليس مؤسساً على بينة، وإنَّما هو من محض أفكارهم فقط، فلا ندع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصير إلى ما ادعوه. حاشا وكلا.

[ولو كان الأمر على ما يدَّعي هؤلاء الزائغة لأنكر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قولها وعلَّمها، ولكنها علمت به، فصدَّقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد لها بالإيمان بذلك، ولو كان في الأرض كما هو في السماء لم يتم إيمانها حتى تعرفه في الأرض، كما عرفته في السماء].

إذاً لو كان جوابها وقع خطأ لما أقرها النبي صلى الله عليه وسلم على الخطأ، لأنَّه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، لكنه صلى الله عليه وسلم أقرها على أنَّه في السماء، ولو كان كما يزعم هؤلاء الزائغون بأنَّه في كلِّ مكان في الأرض كما هو في السماء لعلَّمها النبي صلى الله عليه وسلم وصحح لها الجواب.

[فالله تبارك وتعالى فوق عرشه فوق سماواته، بائن من خلقه، فمن لم يعرفه بذلك لم يعرف إلهه الذي يعبد، وعلمه من فوق العرش بأقصى خلقه وأدناهم واحد، لا يبعد عنه شيء، ((لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ))[سبأ:٣]، سبحانه وتعالى عما يصفه المعطلون علواً كبيراً].

أي: أنَّه سبحانه وتعالى مع علوه فوق عرشه، إلا أنَّه عالمٌ بجميع أحوال خلقه، ((وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ))[الأنعام:٣]، فعلوه لا يمنع من علمه، فهو سبحانه وتعالى قريب في علوه، عليٌّ في دنوه. سبحانه وبحمده، لا يحجبه شيء عن خلقه، فهو يعلم السر وأخفى، فليس بين الأمرين تعارض بحمد لله، ولا موجب لادعاء أنَّه في كلِّ مكان، علمه في كلِّ مكان، أما هو بذاته سبحانه ففوق سماواته.

[حدَّثنا الحسن بن الصباح البزار، حدَّثنا علي بن الحسن بن شقيق، عن ابن المبارك، قال: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنَّه فوق السماء السابعة على العرش، بائن من خلقه].

ما شاء الله، هذا جواب ابن المبارك رحمه الله، رأى أنَّ من أعظم ما يحصل به معرفة الرب مسألة العلو، لأنَّه فوق السماء السابعة، على العرش، بائن من خلقه، ففي هذا أبلغ الرد على هؤلاء الجهمية.

[قال أبو سعيد رحمه الله: ومما يحقق قول ابن المبارك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للجارية: {أين الله}؟ يمتحن بذلك إيمانها، فلما قالت: في السماء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أعتقها، فإنها مؤمنة}، والآثار في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة، والحجج متظاهرة والحمد لله على ذلك.

حدَّثنا مسدد، (قال): حدَّثنا سفيان، عن عمرو يعني: ابن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء}].

الشاهد من ذلك قوله: {يرحمكم أهل السماء}، والرحمة هاهنا هي: رحمة الله عز وجل، فكأنَّه عبَّر بأهل السماء يعني الله سبحانه وتعالى، لأنَّه هو الذي يرحم عباده، هذا الحديث قال عنه المحقق عندي: حديث حسن. ماذا قال عندك يا يوسف؟

على كلِّ حال، هذا الحديث لعل حظه أنَّه حسن، ولا ريب أنَّ معناه صحيح وشق معناه ينبغي أيضاً أن يتفطن له المؤمن، {الراحمون يرحمهم الرحمن}، إذا وجد العبد في قلبه رحمة فليعلم أنَّ هذه علامة خير، فإنَّ من أودع الله تعالى في قلبه رحمة خلقه والشفقة عليهم فهذه علامة خير، بخلاف القاسية قلوبهم، وإذا وجد العبد في قلبه قسوة وجفاء على العباد فهي علامة شر، فينبغي للإنسان أن يتصف بهذا الوصف الحميد وهو الرحمة بالعباد، يكون رحيماً بالعباد، يرق لأهل الضعف والمسكنة واليتامى والأرامل والفقراء المعوزين، ونحوهم ممن هم أهل للرحمة، ولا يكون قلبه كالحجر لا ينفعل ولا يتأثر للضعفاء، {الراحمون يرحمهم الرحمن}، ورتَّب على ذلك: {ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء}.